الاثنين 25/3/2013 الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال

سلسلة التفسير

سورة الكهف (5)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة، وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً وعملاً متقبلاً يا أكرم الأكرمين. أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه. نسألك علم الخائفين منك، وخوف العالمين بك وبعد:

نحن في تفسير آيات من سورة الكهف.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 9-10].

مع بداية هاتين الآيتين يبدأ الحديث عن قصة أصحاب الكهف الذين سميت السورة باسمهم.

أهل الكهف هم جماعة من الشباب كانوا يعيشون في بلدة من بلاد الروم والظاهر أن وقتهم كان بعد سيدنا عيسى عليه السلام، وكان ملك هذه البلدة مشركاً وكافراً.

سمع هؤلاء الشباب بالدين الذي جاء به سيدنا عيسى عليه السلام وبتوحيد الله تعالى فآمنوا فنمى خبرهم إلى الملك فدعاهم واستيقن بأنهم يعبدون الله تعالى وحده فأمرهم باتباع دينه وبالذبح لآلهتكم وتوعدهم على فراق ذلك بالقتل فقالوا له: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: 14].

استمهلهم الملك أياماً، فلما خرجوا من عنده تدارسوا بينهم وقرروا أن يخرجوا من البلدة فخرجوا منها وأووا إلى كهف، وتذكر القصة أن الملك لحق آثار أقدامهم حتى وصل مع حاشيته إلى ذلك الكهف فوجد أثر دخولهم ولم يجد أثر خروجهم، فدخلوا عليهم فأعمى الله أبصارهم فلم يروا شيئاً، فقال الملك: سدوا عليهم باب الغار حتى يموتوا جوعاً وعطشاً.

أيقنوا أن كل قصة في القرآن إنما هي حقيقة وليست من نسج خيال أو تأليف كاتب، يذكرها الله تعالى لنا بأسلوب قصصي تحبيباً وتشويقاً وتثبيتاً للمادة التي فيها، والمراد من هذه القصة ومن كل قصة وردت في القرآن الكريم أن نستخلص منها العبرة لنعمل بما ينبغي علينا أن نعمل.

ملخص قصة أصحاب الكهف:

أن شباباً هُدِّدوا بالقتل لقاء ترك الدين وامتُحِنوا بأن وُضِعوا في خيار بين أمرين إما أن تكفر ويَسْلَمَ بدنك، وإما أن تستمر على الإيمان وتُزهق روحك.

فاختار الفتية الفرار بدينهم ولو على حساب أرواحهم، فكان أن نجاهم الله تعالى وجعلهم آية لمن بعدهم.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ .

الخطاب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولكل قارئ للقرآن الكريم من بعده.

أَمْ: حرف عطف يفيد الإضراب بمعنى بل.

أي أن يُضرب عمن قبله ويوجه الاهتمام إلى ما بعده، فانتبه أيها السامع فسيبدأ الآن حديث جديد في سورة الكهف.

الْكَهْفِ: هو النقب الكبير في الجبل، وإذا كان النقب صغيراً سمي غاراً.

الرَّقِيمِ: قيل فيه عدة أقوال ومن أقربها للصواب: أنه لوح كتبت عليه أسماء الشباب الذين خرجوا وقصتهم.

﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ .

أترون هذه الحادثة أمراً عجيباً، وهي آية من آيات الله بأن ألقى النوم على أناس ثلاثمائة سنة ثم أيقظهم.

نحن كبشر نراها شيئاً عجيباً وغريباً ومخالفاً للمألوف، **مع العلم أن هذه الآية ليست بعجيبة:**

فخلق السموات والأرض أعجب.

والإسراء والمعراج بالنبي صلى الله عليه وسلم أعجب.

وخلق جسم الإنسان بما فيه أعجب.

وتقلب الليل والنهار أعجب.

وما ترونه من مخلوقات الله تعالى أعجب...

فنوم أهل الكهف هذه الفترة وإيقاظهم ما هو إلا آية من آيات الله عز وجل وليست عجباً.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ .

في هذه الآية فوائد كثيرة تنفعنا بشكل عام وبالأزمة بشكل خاص:

❖ هؤلاء الشباب كانوا فتية، وباللغة العربية يتردد الإنسان في حالات متعددة وله مسميات عديدة منذ أن يكون جنيناً في بطن أمه إلى أن يبلغ في الكبر عتياً.

فعندما يكون في بطن أمه سمي **جنيناً**.

فإذا ولد سمي **وليداً**.

فإذا كان يرضع سمي **رضيعاً**.

فإذا فطم سمي **فطيماً**.

فإذا بدأ يمشي سمي **دارجاً**.

فإذا كاد أن يجاور العشر سنوات سمي **مترعرعاً وناشئاً**.

فإذا اقترب من بلوغ الحلم سمي **يافعاً ومراهقاً**.

فإذا بلغ سمي **حَزَوَّراً**.

فإذا اخضر شاربه وأخذ عذاره يسيل سمي **فتاً**.

فإذا اجتمعت لحيته سمي **مجتمعاً**.

فإذا كان بين الثلاثين والأربعين سمي **شاباً**.

فإذا كان بعد الأربعين سمي **كهلاً** إلى أن يستوفي الستين.

وهذا العرض لهذه الأسماء من أجل أن نعرف هؤلاء الفتية كم كان عمرهم؟ والله يقول: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ فنجد أن أعمارهم كانت بين (15-16) سنة.

وقد خيروا بين أن يكفروا بالله عز وجل وتَسْلَم أجسادهم وبين أن تُزهق أرواحُهم إن استمروا على عقيدتهم، فاختاروا أن يبقوا مع الله.

المراد بالكهف: أنهم انصرفوا فراراً بدينهم إلى الله تعالى يلتجئون إليه.

كيف سينازع شباب ملكاً وليس لهم خبرة حياتية أو سياسية كبيرة، كيف سينازعونه وليس لهم قدرة على أن ينافسوا ملكاً صاحب عتاد وجيش ومعارف وصلة؟! فألهمهم الله تعالى أن يأووا إلى الكهف ليخلوا بربهم فقالوا هناك: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

نحن الآن في كرب وضيق وشدة وأزمة وبلية، فتذكروا ما جاء عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**)) [أبو داود وأحمد].

فمن أراد أن ينجو بدينه أو من ظلم ظالم فأول ما عليه هو الفزع إلى الله تعالى والله يقول: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: 43].

جمعت مرة قوانين الرحمة من القرآن الكريم ومن حديث النبي صلى الله عليه وسلم لأنني علمت أن الله تعالى جعل قوانين في هذا الكون قوانين كونية أو قوانين تشريعية.

فالقانون الكوني يقول: الماء يغلي بدرجة حرارة مئة فإذا أردت أن يغلي كأس الماء فيطلب مني أن أتبع قانون الله بأن أعرضه لمصدر حرارة حتى يغلي الماء، وإذا أردت أن أجمد هذا الماء فيطلب مني أن أعرضه لبرودة.

وجاء في قوانين رب العالمين الكونية أن المعادن تتمدد بالحرارة وتتقلص بالبرودة.

وهناك قانون الجاذبية الذي ينص بأن الأشياء تسقط نحو الأسفل.

وهناك أيضاً قوانين تشريعية فمن قوانين الله تعالى في الرحمة:

1- الفزع إلى الله تعالى واللجوء إليه والتضرع بين يديه راجعين إلى أوامره:

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾

وبعد بضع آيات يقول الله: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ [الكهف: 16].

الدعاء وحده عبادة بل هو مخ العبادة، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**)) **ثُمَّ قَرَأَ**: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [الترمذي وأبو داود وابن ماجه].

للدعاء معانٍ عميقة جداً:

أ. جرت العادة أن لا يسأل أحدنا ضعيفاً: فاتصالك بصديقك القوي إقرار له بالقوة، وعدم اتصالك برجل مريض إقرار بضعفه.

فإذا رفعت يدك إلى الله وقلت: يا الله.. فهو إقرار بأنك يا الله القوي الكاشف الفارج الرافع الخافض الرافع المعطي المانع.

ب. الدعاء فيه اعتراف بقصورك وضعفك وحاجتك وفقرك وقلتك.

فبإمكانك أن تحمل أغراضاً تزن عشرين كيلو غراماً لكن إذا وصل الحمل إلى سبعين كيلو فستقر بضعفك واستحالة أن تقوم بهذا لوحدك فطلب المعونة من الآخرين إقرار بضعفك وأنك لا تستطيع لوحدك أن تنجز ما عليك.

فإذا رفعت يديك وقلت: يا الله.. فهو إقرار بضعفك وأنك لا تستطيع حمل هذا الحمل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15].

فالدعاء فيه سر عجيب ولأجل هذا كان مصير المتكبرين عن الدعاء هو جهنم داخرين؛ لأنهم كانوا يقولون: لسنا محتاجين فنحن أقوياء أشداء أغنياء أذكياء ولا حاجة لنا بخالق ولا مخلوق.

في هذه الأزمة كثير من الناس يحتاج إلى معالجة نفسية فهذه القلوب لن تسكن إلا بالرجوع إلى الله تعالى.

في حادثة هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ولحاق الكافرين به يقول الله تعالى ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: 40].

فيوجد سكينة وهذه السكينة لا تنزل إلا من عند الله عز وجل وفي هذه الأزمة والكرب والشدة فإن الناس تبحث عن سكينة فإذا لم يتصل هذا القلب بالله عز وجل فلن تكون السكينة فيه.

ليس المراد بالكهف المكان بل المراد ماذا ستفعل في هذا الكهف فيمكن أن يكون مسجدُك أو بيتُك كهفاً.

عَنْ عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ الْأَنْصارِيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: **كُنْتُ أُصَلِّي لِقَوْمِي بَنِي سَالِمٍ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: إِنِّي أَنْكَرْتُ بَصَرِي وَإِنَّ السُّيُولَ تَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ مَسْجِدِ قَوْمِي فَلَوَدِدْتُ أَنَّكَ جِئْتَ فَصَلَّيْتَ فِي بَيْتِي مَكَانًا حَتَّى أَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا، فَقَالَ: ((أَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ)) فَغَدَا عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ مَعَهُ بَعْدَ مَا اشْتَدَّ النَّهَارُ فَاسْتَأْذَنَ**

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَذِنْتُ لَهُ فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى قَالَ: ((أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ؟)) فَأَشَارَ إِلَيْهِ مِنْ الْمَكَانِ الَّذِي أَحَبَّ أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ فَقَامَ فَصَفَفْنَا خَلْفَهُ ثُمَّ سَلَّمَ وَسَلَّمْنَا حِينَ سَلَّمَ.

[البخاري]

فالمهم أن يكون لك مفزَعٌ إلى الله عز وجل وَوِرْدٌ من عبادة الله وَوِرْدٌ من صلاة الليل.

لا يعقل أن يسمعك الناس عند الفرح بغناء وطرب ولهو ولا يسمعون تضرعك! فاجعل لنفسك في بيتك زاوية تأوي إلى الله تعالى فيها.

2- العناية بالأسرة سبب لرحمة الله تعالى:

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِيْ طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((رَحِمَ اللهُ وَالِدَاً أَعَانَ وَلَدَهُ عَلَى بِرِّهِ)) [أبو الشيخ في العظمة والديلمي والسخاوي].

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنْ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ)).

[أبو داود والنسائي وابن ماجه والإمام أحمد]

إذا كان هناك علاقة أسرية مبنية على التراحم والتعاون والتربية الصحيحة والتربية الإيمانية فهذا جزء من الدين، وإعانة الزوجين لبعضهما البعض جزء من الحياة والدين.

فالبيوت التي تبنى على علاقة إيمانية وأسرية صحيحة فهذه البيوت تقدم مقدمات الرحمة.

3- علاقاتنا المالية الصالحة سبب للرحمة:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى)) [البخاري].

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلِمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ)) [البخاري].

الحديثان يشيران إلى سلامة العلاقات التجارية فإذا كانت علاقاتنا المالية مبنية على الانضباط بالشرع وعلى التراحم فيما بيننا فهو سبب لرحمة الله تعالى.

إذا حدث أن أخطأتُ معك فسأرجع؛ لأن المسلم والمؤمن يخطئ، والتقي والولي تزل قدمه لكنه بعد ذلك يرجع عن خطئه.

4- قانون عام في الرحمة:

عَنْ عَبْـدِ اللَّهِ بْنِ عَمْـرٍو رَضِـيَ اللهُ عَنْهُمَـا قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللَّهِ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ: **((الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ))**.

[الترمذي والنسائي]

هذا قانون عام له علاقة بالعلاقات الأسرية وبالمعاملات المالية وهو عام في كل مكان وفي كل إنسان فإذا قدمت مقدمات الرحمة فسيرحمك الله تعالى.

نسأل الله عز وجل أن يؤتينا من لدنه رحمة وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدنا.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العاملين.